دراسة هادئة

حول إنكار الشفاعة

بقلم

أ. د/ محمد علي عز العرب السماحي

أستاذ العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين بالقاهرة

— لقد دارت مناقشات فى المحيط الفكرى حول إنكار الشفاعة والسنة وها نحن ندلى برأينا حول هذا الموضوع فى هدوء وموضوعية نبغى بها وجه الله .

— وإنه لمن المسلم به أن سعة الصدر فى العلم تسمح بسماع رأى الآخرين وإفساح المجال لهم ومقابلة الرأى بالرأى فى هدوء وموضوعية خاصة وقد قرأنا قول الله تعالى فى مخاطبة الرسول للآخرين : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » فالأحرى أن يكون هذا المبدأ بين المسلمين بعضهم مع بعض .

وبعد :

إن دراستنا تعطينا القناعة التامة بإثبات الشفاعة مع الأدلة المتنوعة والموضوعية ولعل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لمعرفة الحق . وإليك الأدلة والمناقشة وهى تقوم على الأسس التالية : ـ

أولا : يقول الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » إن هذه الآية تدل على أن مغفرة الله لعباده مشروطه بعدم الشرك وهذه المغفرة غير مقيدة بزمان فهى شاملة للدنيا والآخرة فرحمة الله واسعة وهذا يدل على عظمة الله وقدرته وأن الملك ملكه سواء كانت هذه المغفرة منه مباشرة لعبادة أو بإذن منه أو ارتضاء وهذه المغفرة للعباد تلتقى مع الشفاعة لأن الشفاعة فى غايتها هى مغفرة للعباد بيد أنها تقع بإذن أو ارتضاء وهذا الإذن أو الارتضاء بمحض فضل الله وليس قصراً عليه أو إلزاماً بحيث يحد من ملكه وعظمته بل بالعكس تدل على قدرته ومشيئته المطلقة .

ثانياً : يقول الله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

إن هذه الآية تدل على عدل الله المطلق وعدم ظلمه للعباد وكانت الصيغة فيها على سبيل القصر وتأكيد الجملة الإسمية للدلالة الواضحة على عدل الله تعالى وعدم ظلمه العباد، وبعد هذا الحصر والتأكيد لبيان العدل يأتى فضل الله الواسع فى قوله « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » بصيغة أفعل التفضيل وهذا الجزاء الأوفى يشمل فيما يشمل فضل الله ورحمته وسعته على عباده بالمغفرة والرحمة.

ثالثاً : إن من المبادىء الأساسية فى أدب البحث والمناظرة مبدأ (تحديد محل النزاع) ومضمونه أن يكون النزاع والخلاف بين الطرفين على وجه واحد فإذا اختلفت الجهة فيكون النزاع كما يقول أهل العلم (نزاع لفظى) وهذا الموضوع (الشفاعة) النزاع فيه نزاع لفظى والجهة منفكة - فالمنكر فى إنكاره للشفاعة ينكره على جهة غير جهة الإثبات وكل ما ذهب إليه فى إنكاره للشفاعة من خلال الآيات التى ذكرها نوافقه عليه لأنه ينصب على جهة غير جهة الإثبات للشفاعة على نحو ما سنذكره فيما بعد ونوضح ذلك فنقول : -

(ا) إن إنكار الشفاعة التى ذكرت كلها فى شأن الكافرين وهذا حق ولم يقل أحد من أهل العلم أن الشفاعة تقع للكافرين ونحن الآن نوضح تلك الآيات التى استشهد بها كانت فى شأن الكافرين.

١ — ففى سورة البقرة يستشهد بقوله تعالى « وكذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » ١٦٧ فهذه الآية جاءت فى شأن الكافرين الذين قال الله فيهم فى الآيات السابقة عليها مباشرة « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً » فهؤلاء الذين اتخذوا الأنداد هم الذين قيل لهم « وما هم بخارجين من النار ».

٢ — أما آية المائدة التى أستشهد بها فى نفى الشفاعة وهى قوله تعالى :

« يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » ٣٧ فهذه الآية وردت فى شأن الكافرين الذين قال الله فيهم قبل هذه الآية مباشرة « إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » فهذه الآية التى استشهد بها المنكر كما نرى جاءت فى شأن الكافرين.

٣ — أما آية المؤمنون التى استشهد بها وهى قوله تعالى : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ».

فهذه الآية وردت فى شأن الكافرين الذين قال الله فيهم فى الآيات السابقة على هذه الآية مباشرة قوله تعالى : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » فمن الذى يكذب بآيات الله إلا الكافر ؟

٤ — أما آية الزمر التى أستشهد بها وهى قوله تعالى : « أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » ١٩.

فهذه الآية وردت فى حق الكافرين حيث أن كلمة العذاب لا تحق إلا للكافرين كما ورد ذلك فى نفس السورة فى قوله تعالى : « قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » آية ٧٠

فكيف ينقذ الرسول ﷺ الكافرين من النار فيكون المراد من قوله تعالى : « أفأنت تنقذ من فى النار » هو بيان أن الكافرين لا منقذ لهم.

فهذه تلك هى الآيات التى استشهد بها فى نفى الشفاعة وإنكارها فنقول أن هذه الآيات كلها جاءت فى شأن الكافرين ونحن نتفق معه فى أنه ليست لهم شفاعة ولا تنسحب تلك الآيات على عصاة المؤمنين الذين ثبتت لهم الشفاعة بالأدلة الثابتة من القرآن والسنة.

٥ — والحجة الدامغة فوق ما بيناه هو قول الله تعالى فى شأن الكافرين

فى سورة المدثر حينما يخاطبهم فى قوله تعالى على لسان المؤمنين حين يسألون المجرمين ما سلككم فى سقر فقالوا فيما قالوا « وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين » فرد الله عليهم « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .

(ب) أما الشفاعه التى نثبتها فهى ما جاءت فى حق عصاة المؤمنين وهذه هى الأدلة :

١ — لقد أثبتنا فيما سبق من خلال القرآن أن المغفرة ثابته للعصاه المؤمنين لأنه لامغفره إلا عن معصية كما أثبتنا أن فضل الله ورحمته وسعته تحققه فى قوله تعالى « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

٢ — يقول الله تعالى فى شأن الملائكه « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » فهذه الآية توضح لنا مدى الطاعة الكاملة للملائكه وإن الله عليم بهم منه وفضله عليهم أعطى لهم الشفاعة لمن إرتضى من خلقه وهم فى غايه الخشيه من الله وهم مشفقون منها فهذه الشفاعة منة من الله وفضل ولا تنازع الله فى ملكه لأنه هو واهبها وليس مجرد بشارة وعلى أيه حال فلا مشاحة فى المسميات أن نسمى تلك المغفرة شفاعة أو بشارة والأولى أن نلتزم لفظ الشفاعة كما جاء بها القرآن ولا نحورها إلى لفظ بشارة تحت إجتهادات عقلية .

إذا كانت هذه الشفاعة واقعه للملائكه فلا حرج على فضل الله أن يجعلها الرسله خاصة محمد ﷺ .

٣ — أن الشفاعه من الأمور الغيبيه التى تقع فى يوم القيامة الذى يقول فيها الرسول ﷺ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يمكن للعقل أن يبين لنا حقيقة الماء والخمر واللبن والعسل الذى فى الجنة أو أن يصف لنا العرش أو أن يمنع تحت مقتضى العقل أن يكون

الرسول ﷺ تحت العرش ويطلب الشفاعة فهذه كلها خصوصيات غيبيه ولا مجال للعقل فيها إلا التسليم فلو خضعنا تلك المغيبات للعقل فسوف نقع فى الإستبعادات والمحالات التى يتشدق بها أعداء الإسلام تحت وطأة التحكم العقلى .

٤ — يقول الله تعالى فى شأن الكافرين « وكنا نكذب بيوم الدين فما تنفعهم شفاعة الشافعين » فهذه الآية توضح فى مقام الذم أن الكافرين لا شفاعة لهم وهذا هو منطوق الآية ومفهوم المخالفه يثبت أن المؤمنين تنفهم شفاعة الشافعين وإلا إذا لم يكن للمؤمين شفاعه فلا معنى لذم الكافرين فإنهم ليست لهم شفاعه فنحن نعلم دقة القرآن فى معناه ومغزاه .

٥ — وهناك آيات عدة فى سور كثيرة تبين أن الشفاعة واقعة يوم القيامة ولكن بعد إذن منه تعالى بياناً لعظمته وقدرته الجليلة التى لا يمكن لأحد مهما كان أن يتجرأ بالشفاعة إلا بعد إذن مالك الملوك ومن هذه الآيات ما يلى :

١ — « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » البقرة ٢٥٥ .

٢ — « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس ٣ .

٣ — « لا يملكون الشفاعه إلا من أتخذ عند الرحمن عهداً » مريم ٧٧ .

٤ — « يومئذ لا تنفع الشفاعه إلا من أذن له الرحمن » طه ١٠٩ .

٥ — « ولا تنفع الشفاعه عنده إلا لمن أذن له » سبأ ٢٣ .

٦ — « قل لله الشفاعه جميعاً له ملك السموات والأرض » الزمر ٤٤ .

٧ — « ولا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء » النجم ٢٦ .

وهل بعد تلك الآيات المتعددة التى تثبت الشفاعة بعد الإذن بياناً لعظمة قدرة الله ، أقول هل هناك من سبيل منكراً لها أو مفسراً لها بالبشاره ؟

٦ — أما الأحاديث النبوية فهى كثيرة ومتعددة فى كتب صحيح الحديث وهى صريحة فى إثبات الشفاعه ومنها الحديث المتواتر الذى يبين أن الناس يذهبون إلى الأنبياء طالبين الشفاعة فيعتذرون إلا أن تصل الشفاعه إلى الرسول ﷺ فيشفع لهم فتقبل شفاعتهم فيمن شاء الله تعالى له الشفاعه ومنها الحديث الذى يقول « أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع » رواه مسلم .

وشفاعة الرسول ﷺ يوم القيامه واختصاصه بذلك فلا يصح لنا أن نخوض فى هذا الاختصاص لأن هذا أمر يرجع إلى الله سبحانه وتعالى وله أن يفعل ما يشاء ويهب لمن يشاء ولا معقب لحكمه وما علينا إلا أن نسلم بما ورد ولا تعنى كون الشفاعه للرسول ﷺ أن نحاول التعليل لهذا الإختصاص .

ونقول إن الشفاعه للرسول ﷺ يحوطها الخضوع والمذله لله تعالى خاشعاً متواضعاً ملحاً فى طلب المغفرة والشفاعة لعباده ، فهل هذا المقام يمكن لأحد أن يتجرأ ويقول إن الشفاعه هذه جرأه على الله أو أن تحد ملك الله يوم لا ملك إلا ملكه !

٧ — هذا وقد أجمع المفسرون والعلماء أن قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » هو مقاماً فى يوم القيامه وهو مقاماً محمود يحمد فيه الرسول ﷺ بما له من الشفاعه فى هذا اليوم وقد دعموا ذلك بأحاديث وآثار متعدده ، فلماذا نعدل عن هذا الإجماع ونفسره تفسيرات أخرى لا سند لها إلا التعليلات العقليه التى لا قيمة لها أمام هذا الإجماع .

رابعاً : أن المنكر للشفاعه بكل بساطه يطعن فى كتب السنة

ويجرح رجالها ويتهم الكتب الصحيحة بالوضع والتناقض مع القرآن وهذه دعاوه غير صحيحه ويتطلب من منكرها أن يراجع جهد العلماء فى جمع الأحاديث والتحرى فيها وشروط قبولها متناً وسنداً وعلم التخريج بحيث يتوصل الدارس من هذا كله إلى يقين بأن هؤلاء العلماء على ورع وبذلوا الجهد الكبير فى تحصيل هذا العلم وضبطه بحيث يشعر الإنسان تجاه هؤلاء العلماء إلى إحترام والتبجيل بدلا من الطعن فيهم وبخس جهودهم .

ثم نقول هل الرسول ﷺ كان لا يتكلم إلا بالقرآن فقط أم له أحاديثه الكثيره المتنوعه فى شئون الحياة وتبياناً للقرآن فى وقت يلتف الصحابه حوله وهم المشهود لهم بقوة الحفظ وصفاء الذهن بحيث كانت قلوبهم واعيه لأحاديث رسول الله ﷺ يتناقلونها فيما بينهم حتى قيد الله للعلماء أن يدونوا السنة ويتحروا فى تدوينها على نحو ما ذكرنا .

ثم نقول عن أنكر الشفاعة متسائلين هل أنت خلو من أحاديث رسول الله ﷺ ولا تستشهد بها أم أنك لديك بعضاً من أحاديث رسول الله ﷺ ؟

وهنا نسألك على أى أساس تحكم بصحة هذا البعض إن لم يكن عن طريق هؤلاء العلماء ؟

وأخيراً نطالب من كل منكر للشفاعه ومن هو على منهجه أن يتمهلوا فى الشرع فى التعليلات العقليه عند ذكر الغيبيات إنها من الأمور التى لا مجال فيها إلا التسليم خاصة وإننا فى هذا العصر نشاهد مسلمات عقليه بديهيه نقر بها عقلياً وأصبحت من الأمور العاديه مثل الآلات المخترعه التى تنطق وتتكلم وتحدث برامج حسابيه دقيقه وصناعات

متقنه فضلا من الطيران فى الجو بجميع أنواعه، أقول أن هذه التقنية الحديثة لو أخبرنا بها شخصاً قبل ثلاث مائة عام لأقام الأدلة العقلية المتعددة على استحالة حدوث ذلك ، إذا نشاهد أن عاجز عن إدراك أمور مشاهدة يحكم عليها بالاستحالة تارة ثم يسلم بها تارة أخرى وهنا نقول سبحان الله عالم الغيب والشهادة .

خامساً : ماهى ثمرة الخلاف ؟ إن ثمرة الخلاف بيننا وبين هذا المنكر للشفاعة هو أن مذهبنا المدعم بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة وإجماع المسلمين على إثبات الشفاعة هو بيان مدى سعة فضل الله ورحمته بعباده ونزع اليأس من قلوبهم وراحة بالهم كيف لا ونحن فى معظمنا تنتهى بنا الحياة وتحيطونا الذنوب سواء نسينا أو أخطأنا ومن هنا نجد قول الله سبحانه وتعالى كيف يعلمنا أن ندعو الله ونقول «ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» .

— أما الثمرة فى اتجاه المنكرين فإنهم يخشون الفوضى من الناس العصاه حينما يعلمون أنهم يخرجون من النار فضلا بأن النسبة تختل بين الجنة والنار لأن الشأن أن الكثرة فى النار وإثبات الشفاعة تجعل الكثرة فى الجنة وهذ اختلال بالناموس الإلهى .

— أقول رداً على هذا التخوف بأن المغفرة فى الشفاعة تحت مشيئة الله فلا ضمان للعاصى أن تناله الشفاعة وعلى العاقل ألا يتجراء على المعصية وكل أمله هو الطمع فى جنب الله عسى الله أن يغفر له ولا ييأس من رحمة الله فهذا يعطى الاطمئنان للمؤمن العاصى وأن يكون متقلباً بين الرجاء من الله والخوف منه ثم نقول أن العاصى لو علم أنه مخلد فى النار

لامحالة يعطيه الجرءة على التمادى فى المعصية حيث أنه لارجاء عنده ولا أمل .

ثم نقول أن اختلال النسبة فى الناموس غير صحيحة لأن نسبة المؤمنين بما فيهم من العصاة إلى الكفار قليلة والواقع والمشاهد على مر التاريخ يدل على ذلك ومصداق ذلك قول الله تعالى : «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» .

نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل ويرزقنا الله تعالى قبول شفاعة النبى ﷺ فينا .

ا . د . محمد على عز العرب السماحى